الأداء الفني لعظات الشاعر طلائع بن رزيك

اعداد الدكتور/ فؤاد أحمد صبره عبد الله
المدرس بقسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية
جامعة أسـيوط

طلائع بن رزيك بن عبد الله بن الصالح ، الأرمني الغساني ، أديب شاعر متميز في عهد الدولة الفاطمية .

ولي الوزارة بمصر للخليفة العاضد بعد وزارته للفائز ، لقب بألقاب كثيرة ، تكشف عن شهرته ومكانته في عصره ، من أشهرها «الملك الصالح » ، ولد سنة خمس وتسعين وأربعمائة من الهجرة ، في أسرة عريقة متدينة ، فحاز شرف الدارين ، وتوفي سنة ست وخمسين وخمسمائة من الهجرة(١) .

الشعر الوعظي في ديوانه :

وبالنظرة الفاحصة في ديوان الشاعر « طلائع » وجد أنه اشتمل على فنون الشعر وأغراضه من غزل ، ووصف ، ورثاء ، ومدح ، وحماسة ، وزهد ، وموعظة ... ألخ .

---

(٤) راجع : ديوان الوزير المصري « طلائع بن رزيك » جمع وتبويب د ـ أحمد أحمد بدوي ـ المقدمة وأيضا : ديوان « طلائع بن رزيك الملك الصالح » جمع وتبويب ـ محمد هادي الأميني العراقي « ترجمة طلائع » بتصرف .

ويقع الديوان فى أحدى وتسعين ومائة صفحة ، ويضم ما يقـــرب من ألفى بيت من الشعر ، مقسم قسمين : قسم خاص بحياة الشـــاعر وعصره ، وآخر لشعره ، مرتبا حسب القوافى ، مبتدئا بالهمزة ومختتما بقافيـــة اليـــاء (٢) •

وعلى الرغم من كثرة الأغراض الشعرية فى الـــديوان وتداخلهـــا نستطيع أن نقسمها ـــ حسب قيمتها الفنية ـــ أربعة أقسام رئيسية :

القســـم الأول :

شعر المديح والرثاء ، وهو جل الديوان ، ولافت للنظر ، وأغلبه متجه الى آل البيت مدحا ورثاء •

القسم الثانى :

شعر الدعوة الى الجهاد ، أو بعبارة أعم شعر الحماسة ، خاصـــة فى عصره ، عصر الحروب الصليبية ، حيث كانت الهجمة الصليبية على أشدها مما حدا بالمسلمين أن يشحذوا الهمم ويدافعوا عن أوطانهم بكل سلاح ، وقد برز الشاعر فى هذا الميـــدان ، وتميز بشـــعره لتحميس المسلمين للذود عن عقيدتهم •

القسم الثالث :

شعر الاخوانيات ، أو المراسلات الشعرية ، وقد نافست على يد «طلائع» الرسائل الاخوانية النثرية ، وهذا اللون من الشـــعر ، كان

---

(٢) ديوان طلائع بن رزيك ـــ محمد هادى الأمينى ـــ طبعة النجف الأشرف بالعراق سنة ١٩٦٤م •

يدور بين الشاعر ومعاصريه من الشعراء والقواد ، وديوانه الشعرى مزدان بهذا الفن المعبر .

القسم الرابع :

شعر المواعظ والنصائح ، ويمتزج به شعر الزهد والحكمة ، وهذا اللون من الشعر واضح جلى فى ديوان الشاعر،وقد تمايز فيه عن غيره من الفنون الشعرية بأدائه الفنى ، نظرا لبواعثه المتنوعة لديه ، وتجربته التى خضع لها ، مما سيكشف عنه هذا البحث ان شاء الله تعالى :

بواعث الموعظة عند الشاعر :

لعله من اللافت للنظر حقا ، أن يزخر ديوان الشاعر « طلائع » بالموعظة والزهد ، فى الوقت الذى يتقلب صاحبه فى المناصب الكبرى، والتى تكون مدعاة للترف والتنعم ، وهذا ما يدعو الى ضرورة الالتفات الى حياته والى شعره للكشف عن روافد شعره الوعظى وقيمته الفنية. نشأ « طلائع بن رزيك » فى مدينة « أرمينية »(٣) الجميلة الساحرة ، محبا للعلم والأدب : شغوفا بالبحث والمطالعة ، فى مختلف العـــأوم

---

(٣) « أرمينية » مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، بينها وبين البحر نحو ثلاثة أميـال أو أربعـة ، وهى فيما يزعمون مدينـة زاردشـت ، نبى المجوس ، وهى حسنة كثيرة الخيرات ، واسعة الفواكه والبساتين ، صحية الهواء كثيرة الماء ، الا انها غير مرعية من جهة السلطان لضعفه ، وهو « أزيك بن البهلوان بن الركز » وبينها وبين « تبريز » ثلاثة أيام ، وبينها وبين « أتبل » سبعة أيام .

ديوان طلائع بن رزيك ـ المقدمة ص ٥ ـ محمد هادى الأمينى ـ طبعة أولى ١٩٦٤ .

والفنون ، ومن ثمة نراه يغشى ندوات الأدب والفكر السائدة فى ذلك الحين ؛ ليقضى أرب مشاعره من العلم والنفقة ، وغاية بدنه من الجمال والبهجة ، وربما عمد الى العمل فى الحقول والغابات ، يحاول بذلك أن يعمل الى جانب والده ، ويصنع ما يصنعه ، ولكنه لا يلبث حتى ينطلق تحت ستار الليل الى حيث يلقى نفسه فى زاوية للمطالعة ، رغبة منه فى الكمال ، تلك الرغبة التى تسلطت عليه منذ نعومة أظفاره ، ولكن الكمال هنا يتخذ منحنى جديدا ... ، فهو يريد أن يكون رجل مجتمعات علمية ، يشار اليه فى المنتديات والجمعيات العلمية ، ويريد أن يكون حديث مجالس ينصت اليه ذو المكانة ، ويصفه التاريخ بأحسن أوصافه من النبل والتهذيب والظرف واللباقة .. ، ولذلك نرى التاريخ يسجل الى جنب رغباته النفسية ، رغبته القوية فى أن يعد واحدا من رجال الأدب وأساطين العلم(٤) .

وتنقل « طلائع » طالبا للعلم فى سائر البلدان الاسلامية آنذاك ، حتى انتهى به الحال الى أن يتقشف ويتزهد فى الحياة الدنيا ، ويعيش عيشة المعوذين .

ومن روافد الموعظة عند الشاعر ، حبه لآل البيت — رضى الله عنهم — لذا نراه ناشرا لمآثرهم ، متفانيا فى الدفاع عنهم .. ولقد دفعه هذا الحب الى الرغبة القوية فى زيارة قبر امام على — كرم الله وجهه — فى النجف بالعراق ... ووصل مع رفقة من الفقراء الى الضريح ، وهناك تنسم عبير العترة الذكى ، وما أن أطمأن قلبه ، واستراح بدنه ، حتى أمر من قبل أحد الصالحين بالذهاب الى مصر ، حيث الولاية والملك (٥) .

---

(٤) راجع : ديوان الشاعر — المقدمة ص ٦ بتصرف .

(٥) المرجع السابق نفسه — المقدمة — ص ٨ بتصرف . وأيضا فى : الخطط المقريزية — الجزء الرابع — ص ٧٣ — ٨١ بتصرف .

توجه « طلائع » الى مصر والخلافة الفاطمية اخذة أوج عظمتها وازدهارها ، وبعد أن بلغها انتدب للعمل فى ادارة شئونها التحريرية ، وأبدى الاخلاص فى عمله .

ان القيم الانسانية المتركزة فى نفسية « طلائع » هى التى كانت باعثا أساسيا الى رقيه وتقدمه ، وسيره الحثيث نحو الخلود والمجد ، وهى بعينها ، حدت بالخليفة الفاطمى ودفعته الى اصدار قرار وسجل بتعيينه واليا على — قوص — ثم تعيينه واليا على — أسوان — ولم تكد تمضى على ولايته لأسوان مدة حتى قرر أن يدخل — الصعيد المصرى — تحت ولايته ، ويخضع لأمرته ، فزادت صلته بالوزراء والأمراء ورجال القصر ... وارتفع شأنه وعلا نجمه ، حتى تولى « الظافر » الملك ، لكنه لم يستطع أن يدبر شئون البلاد على الوجه المطلوب ، لصغر سنه ، فحدثت بها فوضى واضطرابات ، أودت فى النهاية لقتله(٦) ..

اجتمع رجال القصر والوزراء ، ووقع الاختيار على طلب «طلائع» الى العاصمة ، فكتبوا اليه واستنجدوا به ، فلما بلغ «طلائع» الخبر جمع الجموع ، وحشد الجنود ، وقصد القاهرة ، وولى الوزارة ، ولقب « بالملك الصالح » ..

ومن بواعث شعر الموعظة والنصح ، ما جاء من احتفاء الخلفاء والأمراء بالشعر والشعراء . فى العصر الفاطمى ، يصور ذلك الدكتور محمد كامل حسين(٧) فيقول : « ولا أكاد أعرف دولة من الدول

---

(٦) يراجع : النجوم الزاهرة ص ٢٨٨ : ابن تغرى بردى ـ دار الكتب المصرية ، وأيضا : مقدمة الديوان بتصرف .

(٧) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٢٨ .

الاسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد ، بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده فى طاقات فى متنزهات عامة ، مما يدل دلالة قاطعة على تمجيدهم لفن الشعر والشعراء ، فأين نحن الآن من مصر فى العصر الفاطمى » .

و « طلائع » واحد من رجالات الدولة ، احتفى بالشعر والشعراء ، فراح يتفنن فى قرض شعره ، ويعدق الهبات على الشعراء .. ويرسل شعره فى صورة حكم وتوجيهات ... وخاض « طلائع » غمار الحياة ، وسبر غورها ، وركب الصعب لتحقيق طموحه وأحلامه ، حتى وصل الى كرسى الوزارة « بمصر » ، ونظر الى الوزراء قليلا ، فرأى الأيام الماضية ، بحلوها ومرها ، بشقائها وسعادتها ، فدفعه ذلك كله ، الى ان يزهد فى الحياة ، ويحتقر الدنيا ، ليعلن للناس جميعا أنه تشبع منها ، وأصبحت لا تشغل فى قلبه حيزا يذكر ...

ومن دوافع الموعظة عند « طلائع » أن هذا اللون من الشعر نما واتسع فى الدولة العباسية لظروف عديدة ، كان أبرزها ، رد الفعل الذى أحدثه انغماس الكثيرين من الحكام والأثرياء فى لهوهم وعبثهم ومجونهم ، ووجود الكثرة الغالبة من الوعاظ والنساك الذين كانوا يقاومون هذا اللهو ، ويتصدون لهذا العبث ، الى جانب التنافس العلمى الذى كان بين العلماء المشهورين ، والذى كان يذكى روحه طائفة من الحكام الموجودين بأقاليم الدولة ليبعثوا النهضة العلمية فى اقليمهم(٨) .

---

(٨) راجع من النصوص الأدبية فى العصر العباسى للدكتور / مصطفى محمود يونس ص ١٢٥ ـ ١٢٦ بتصرف ـ طبعة ثانية ١٩٨٢م .

وكان شاعرنا « طلائع » واحدا من هؤلاء .. فراح يسجل نظرته الخاصة فى شعر جاء فى اطار النصح والتوجيه ..

ولجملة الأسباب السابقة نمت الموعظة وكثرت فى شعر « طلائع » وتنوعت الأدوات الفنية المستخدمة فى المعالجة ، وذلك يتضح من خلال الطرح الفنى لعظاته .

ها هو ذا يصدر ديوانه بقصيدة — من قافية الباء — مجزوء الرمل — تبلغ سبعة وثلاثين بيتا ، كلها مواعظ ... يقول فيها :

أيها المغرور لو فكر ت لم يخف السواب

ان تفر من شرك الدهر فالدهر انقلاب

واذا نحن أقمنا فلنا يوما ذهاب (٩)

والأبيات تعلن عن موقفه من الحياة ، وفلسفته للموت ، وتثبت — أيضا — منذ بداية الديوان : أنه شاعر الحكمة والموعظة ، وأن شعره ينبع من تجربة عميقة ، ويعبر عن رؤية ذاتية .

واذا كان « طلائع » شاعرا بارعا ، حاكما ممتازا فان كثيرا ما يتخلى الشاعر الحاكم عن مظاهر الأبهة والمجد ، ويخلو الى نفسه مجردة من كل مظهر ، فيتدبر فى أسرار الكون ، ويغوص فى أعماق فلسفة الحياة والموت وعندها يزهد فى كل مجد ، ويفر من كل مظهر من مظاهر العظمة .. وهكذا كان « الملك الصالح » وكانت تجربته التى ساقها الينا فى تعبير فنى ..

---

(٩) ديوان طلائع ابن رزيك ص ٥٥ محمد هادى الأمينى — الشرك : ما ينصبه الصائد ليقع فيه الطير و الوحش .

أين من جادت على الأرض لجدواه سحاب
وغدا جيدها من طبيب ذكراه سخاب
وبنى كل منيع زانه الصم الصلاب
ناد فى تبه من الآفاق واسع هل تجاب
وأعالى خطط الفسطاط مهجور يباب
والذى فيها من العمران معناه الخراب
ضربت فى جانب الخندق للقوم قباب
ما اقلتها ولا ما تحتها البزل الغراب
ترب بالسفح قد عفى عليهن التراب
كم بها مثوى كريم النجر يزميه النصاب
كان حينا فى قديم الدهر يرجى ويهاب (١٠)

والأبيات السابقة : عظات مرسلة ، جاءت فى اطار النصح والارشاد .. نرى الشاعر فيها لبس لبوس الوعاظ والزاهدين ، فهو يحاول أن يحطم كبرياء المغرور ، وأن يذكره بهازم اللذات ومفرق الجماعات ...

وأدواته الفنية التى استخدمها الشاعر كثيرة ، منها أساليب الموعظة المتنوعة بين الخبر والانشاء ..

---

(١٠) المرجع السابق نفسه ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ . وفى الأبيات : جدواه ، فائدته ، الجيد : العنق ، سخاب : عقد ثمين ، الصم : الجلد القوى ، يباب : خراب ، السفح : الأرض المستوية ، المثوى الاقامة ، كريم النجر : كريم الأصل .

« أيها المغـرور » لينبه فيه الحذر من تلك الصفة الذميمة لكيلا يقع فيها ويحذرها .

وقوله : « ان تفر من شرك الدهر ، ثم فى قوله » : « اذا نحن أثمنا » هذا الالتفات من المخاطب الى المتكلم ليشرك الشاعر نفسه فى النصح والتوجيه ، وبذلك يزيل حرج المخاطب ، ويدفعه الى اسـتماع النصيحة ، والعمل بها .

وقوله موجها نظر السـامع الى الاعتبار والاتعـاظ فى أسـلوب خبـرى .

« وأعالى خطط الفسطاط مهجور يباب » « الذى فيه من العمران معنـاه الخراب ... » .

لقد استطاع الشاعر أن يكون الواعظ الماهر والحكيم المجرب ، يعقد لعقد موازنات فى الحياة والموت : « العظيم والحقير والعمـار والخراب ... ألخ » ليخلص الى حقيقة الحقائق ، وهى أن الدنيـا تافهة وفانية ، والموت وما يحدثه بها آت لا محالة ...

يصوغ ذلك فى رؤية فنية متفردة ، قد يشاركه غيرها فيها ، الا أن لكل واحد نظرته الخاصة به وعمله المتميز ..

ووظف الشاعر ألفاظه السهلة المتداولة ، وهى كثيرة فى القصيدة : « المغرور ـ الصواب ـ شرك ـ انقلاب ... ألخ » لخدمة أفكاره التى طرحها ، وهى التحـذير من الدنيا والتذكـير بالموت والقبـر ، وعتاب الناس على غفلتهم توجيههم الى التوبة والرجـوع الى الله ، وجاءت سهلة ، لأنه يخاطب جمهور الناس ، كل الناس لا طائفة بعينها .

ولعله لم يكن موفقا فى بعض الكلمات غير الواضحة التى لا تتناسب

ـقام النصح العام كقوله : « سخاب ـ ويباب ، النجر ـ النصـاب ... ألخ » التى تحتاج فى معرفة معناها الى تنقيب وكشف فى المعجمات اللغـوية •

ونرى الشاعر فى آخر القصيدة يخونه التعبير حين يقول :

ما لـكم ليس تتوبـون وللجـانى متـاب(١٠)

« فقد بدأ التساؤل موجها للمخاطب ، ولكنـه أكمـل الجملـة بالحديث عن الغائب ، فأحدث بذلك لبسـا وغموضا ، وكان حقـه أن يقول : « ما لكم لا تتوبون »(١١) •

ولنا أن نقول : انه خطأ أسلوبى نابع من الخطأ النحوى ، لأن ليس تدخل على جملة اسمية •

وعاطفة الشاعر فى القصيدة ، لم تكن على مستوى واحد ، حيث كانت قوية مؤثرة من أول القصيدة الى البيت الرابع عشر . ثم ضعفت فى آخرها ، من البيت الخامس عشر الى نهايتها ••

ولعل مرجع ذلك أن الشاعر أنشأ قصيدته فى موقفين مختلفين ، أو أن طول القصيدة وكثرة الموعظة ، أورثه السآمة والملل ، وكـأنى بالشاعر يجمع كل قوته ويكثف عاطفته فى الجـزء الأول من القصيدة ، ثم يصاب بالملل والتعب فى الجزء الأخير منها •

والموسيقى التى تنبعث من الوزن « مجزوء الرمل » والقافيـة ، موسيقى قوية عالية وهى أداة توحى بالتجربة التى عاشها الشـاعر

(*) ديوان طلائع بن رزيك ـ ص ٥٦ محمد هادى الأمينى •

(١١) من النصوص الأدبية فى العصر العباسى ـ للدكتور ـ مصطفى محمود يونس ص ١٢٤ •

وارتبط بها ، حيث تقلب فى الحياة ، وتدرج فى بلاط الدولة الفاطميه الى ان ارتقى كرسى الوزارة ، وتلفت حوله فوجد كل ما يحيط به زخرف زائل ومتـاع فان .

وجاءت الموسيقى الداخلية منسجمة مع الموسيقى الخارجية ، فهو يختار ألفاظا ذات جرس عال ، تتناسب الطرح الوعظى ، فلاحظ ذلك فى مثل قوله : « أين من جادت .. ؟ ناد فى تيه ــ هل تجاب ؟ ، انقلاب مجور بياب العمران ــ الخراب ... ألخ » . كلمات توحى بالعبرة من الموت ومظاهره المتنوعة فى الحياة وينتقل بنا الشاعر على درب النصح والموعظة نقلة جديدة ، حيث نراه يتحسر على ما فات بغير عدو واتعاظ .. فيقول :

مشيبك قد نصا صبغ الشباب
وحل البـاز فى وكر الغراب

تنام ومقلة الحدثان يقظى :
وما نـاب النوائب عنك فابى(١٢)

وكيف بقاء عمرك وهو كنز :
وقد أنفقت منه بلا حساب

مقطوعة خفيفة ، أعلن فيها الشاعر عن دنو أجله ونفاذ عمره ، وأن ما بقى قليل لذا يجب أن يحاسب نفسه ويعمل صالحا ..

وتنوع أسلوب الشاعر فيها بين الخبر والانشاء : « مشيبك قد نصا ... » يوحى بالحسرة والندم على ما فات « وحل البا

---

(١٢) ديوان طلائع للأمينى ص ٥٧ ، والأبيات أيضا فى النجوم الزاهرة ص ٣١٤ .

فى وكرب الغراب » يوحى بدنو الأجل وقربه •• والانشاء فى قوله : « كيف بقاء عمرك وهو كنز » وكلمة « حساب » توحى بدراية الشاعر بعلم الاحصاء والحساب ، وتشير الى اتصال حساب الدنيا بحساب الآخرة ومن الأدوات الفنية فى الأبيات : الموسيقى ، وقد تفاوتت الموسيقى الخارجية — الوزن والقافية — مع الموسيقى الداخلية — من الكلمات المنتقاة — كمشيك — ناب بقاء عمرك •• الخ » فى طرح الموعظة وتأثيرها فى المتلقى •

وأحسب الشاعر رفع من صورته الفنية ، حينما رصعها بالبديع جناس مثل : « ناب ••• نابى » « وطباق » تنام ••• يقظى فجاءت ذات جرس موسيقى مساعد فى ابراز فكرة الموعظة وتوصيلها الى المستمع •••

ونلتقط — هنا — صورة من صور النصح والارشاد فى ديوان الشاعر ، يرسلها الى الفقيه والشاعر « عمارة اليمنى »(١٣) •

قل للفقيه عمارة : يا خير من
أضحى يؤلف خطبة وخطابا

أقبل نصيحة من دعاك الى الهدى
قل : حطة وادخل الينا البابا

---

(١٣) عمارة اليمنى ، شاعر الدولة الفاطمية ، وفقيه مشهور ، عاصر طلائع وراسله ، ولد سنة «١١٢١م» وتوفى «١١٧٤م» ومن مؤلفاته : النكت العصرية : فى أخبار الوزارة المصرية وأخبار أهل اليمن ، وديوانه الشعرى • تراجع أخباره فى « النكت العصرية ص ٢٠ طبعة هارنوج ١٩٨٧ م •

تلق الأئمـــة شـــافعين ولا تجـــد
الا لدينـــا ســـنة وكتـــابا

وعلى أن يعلـــو محلـــك فى الورى
واذا شـــفعت الى كـــنت مجـــابا

وتعجـــل الآلاف وهى ثلاثـــة
صـــلة وحقـــك لا تعد ثـــوابا(١٤)

هذا اللون من الشعر يعرف الاخوانيـــات ، أو فـــن المراســـلات الشعرية ، أرسله الشـــاعر الى صـــديقه « عمارة » بقصد استمالتـــه الى مذهبه ، ونلمح فيها الاغـــراء والوعيد ..

ومما أضعف من رؤيته الفنية فى المقطوعة السابقة ، المبـــاشرة ، حيث يطلب منه أن يتحول عن مذهبه الى مذهب الشاعر الشـــيعى ، ولا شك أن المباشرة تنزل بالعمل الفنى ويؤخذ على الشاعر ـــ أيضا ـــ عدم صدقه فى نصحه ، لذا فهو يريد أن يضمه لمذهبه بأى ثمن .

ومما يؤيد هذه الرؤية ، أن الشـــاعر « طلائع » يحاول رشـــوة « عمـــارة » بالمال .. كما جـــاء فى البيت الأخير :

وتعجـــل الآلاف وهى ثلاثـــة
صـــلة وحقـــك لا تعـــد ثوابـــا

وورد فى مقدمة الديوان ما يؤكد ذلك ، فقد « حاول طـــلائع أن يغرى عمارة بالدخول فى مذهب الشيعة ، ولكن الشاعر أبى . أرســـل

---

(١٤) ديوان الوزير المصرى : طلائع بن رزيك ـــ د ـــ أحمد أحمـــد بدوى ص ١٠ .

إليه يوما رقعة فيها أبيات بخطه ، ومعها ثلاثة أكياس ذهبا «(١٥) .

وبايجاز يقتضيه هذا البحث ـ نلحظ على الأبيات ، أن الشاعر يخاطب الفقيه مستعليا عليه شامخا بأنفه ، وهذا يفهم من نحو قوله مثلا : « اقبل نصيحة .. قل ... وأحسب أن الشاعر جانبه التوفيق في عرض موعظته بهذا الأسلوب ، لأن الموعظة تكون بالحجة والاقناع ، أنصق للفؤاد وأنفع لذوى الألباب .

ولعل الشاعر لم يوفق ـ أيضا ـ في اقتباسه من القرآن الكريم حينما قال :

« وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا ... »(١٦) ، حيث تفيد الآية الكريمة ، اعلان الخضوع لله في ساعة النصر .. وفي مقابلة الطاعة يعدهم الله أن يغفر لهم ... وهذا غير ممكن في جانب الشاعر .. بل المقابلة نفسها خطأ كبير منه ... وبالجملة ، فان الشاعر فسد أضعف رؤيته الفنية بالمباشرة والمدح غير الصادق وبالتعالى ، وشراء عقيدة المنصوح بالذهب والاقتباس على غير مراده ...

ويبدو أن الوزير « طلائع » لم ينس ما مر به من تجارب الحياة ، وما شاهده ممن ارتفعوا الى قمة المجد والسلطان ، ثم هووا عن سلطانهم ، ومضوا كأمس الدابر ، ولقد شاهد وزراء كانوا ملء السمع والبصر ، فقتلوا ، ولم يبق لهم من أثر ، ولذا يقال : « انه لما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة :

---

(١٥) ديوان الوزير المصرى ـ طلائع بن رزيك ـ د ـ أحمد أحمد بدوى ص ١٠ .

(١٦) جزء من آية ١٦١ ـ سورة الأعراف .

أنظـــر الى ذى الـدار كـم
قـــد حـــل ســاحتها وزيـــر

ولكـــم تبخـــتر آمنـــا
وســط الصـــفوف بهـا أمـــير

ذهبـــوا ، فـــلا والله مـــا
يبقى الصـــغير ولا الكبـــير

ولمثـــل مـــا صـــاروا اليـــه
من الفنـــاء غـــدا نصـــير (١٧)

هذه صورة يسوقها الشاعر للعبرة والتفكر ، من خلال تجربـــة عايشها عن قرب وتلبس بها ومن ثمة فهو متخوف من اعبائها ••• فهى نفثة من أثقلته المســئولية فخاف العاقبة متمثلا بمصير من سبقوه •••

تعطينا الصورة الأمن والأمان للحظات فى هذه الدار ، ثم ما لبث أن تحول الى خوف وموت وفناء ، وقد استخدم أدوات متنـــوعة فى ابراز هذه الصورة ••• منها اختياره لكلمات توحى بها كما فى قوله : أنظر الى ذى الدار كم ••• » فالنظرة للتأمل والتعجب للعدد الكـثير من الوزراء الذين حاوا هذه الدار ثم رحلوا عنها بسرعة ••• وقوله : « ذهبوا ، ما يبقى ــ الفناء ••• » توحى بالزوال والتغير وأنهـــا لا تـــدوم لأحـــد •••

« وأسلوب القسم فى قوله : فلا والله ما يبقى •• » يريـــد أن

---

(١٧) ديوان الوزير المصرى ــ طلائع بن رزيك ــ د ــ أحمد أحمـد بدوى ص ١٨ ٠

يقـرر حقيقة ذكرها أولا في قـوله : « ذهبوا » أى رحلوا جميعا بلا اسـتثناء ..

وأعطانا من البديع بقدر ما يبرز هذه الصورة عند المتلقى فبين « الصغير والكبير » طباق وبين «صاروا ونصير» جناس لافادة العموم والشمول وأكمل الأداء الفنى بموسـيقى رتيبة حزينة سـواء أكانت خارجية ــ موسيقى الوزن والقافية ــ أم داخلية من الكلمات المنتقاة بعناية لتناسب الموقف مثل « حل ساحتها ــ آمنا ــ أمير ــ ذهبوا ــ يبقى ــ غدا نصير .. » .

وما زالت فكرة الموت وترقبه تراود الشاعر حينا بعد حين ، فهو ينتظر وروده . ولعـل مصرع الوزراء قبـله كان ماثلا دائما أمامه ، وربما كان قلبه يناجيه بأن مصيرا كمصيرهم ينتظره ، فيقول :

نحن فى غفلة ونوم ، وللمو ت عيون يقظانة لا تنـام

قد رحلنا الى الحمام سنينا ليت شعرى متى يكون الحمام؟(١٨)

وفى طلبه الموت وتمنيه ، يكشف عن لحظة صـفاء ومحاسبه بعد طول غفلة ونوم ونلحظ أن الشـاعر وظف مفرداته « غفلة ، ونوم ، يقظانه ، رحلنا ، الحمام » فى خدمة رؤيته الفنيـة فى معالجة نسـيان الموت بذكر مقدماته ...

ويلفت النظر فى أدائه ، أنه يكثر فى بناء كلماته من الأصـوات

---

(١٨) ديوان الوزير المصرى ــ طلائع بن رزيك ــ د ــ أحمد أحمد بدوى ص ١٨ ــ ١٩ .

المجهـورة(١٩) عالية النبر ــ خاصـة حرف الروى كما هنا « الميم » وفى الأبيات السابقة حرف « الراء » وهذه الأصوات تناسب أسلوب الطرح الوعظى ، حيث تقويه وتجعله مؤثرا فى مستمعيه .

وبعين المجـرب الحكيم ، يرى المرض وسـيلة للتذكير بالموت ، عندما ينسى المرء أنه وارد لا محالة :

كم ذا يرينـا الدهر من أحـداثه :

غبرا وفينـا الصـد والاعـراض

ننسى الممات ، وليس يجرى ذكره :

فينـا ، فتـذكرنا به الأمراض(٢٠)

نسيان الموت حقيقة واقعة على كل البشر ، فلا نحس به الا عندما يحق ناقوس الخطر بالعلل والأوجاع ، وهـذه الفكرة ليست جديدة ، وأسلوب الوعظ والتذكير دفعه الى منطقة الأمور ــ فراح يعالج فكرته بوضوح وسهولة فى كلمـات : « الدهر أحداثه ــ غبرا ــ الصـد ــ الاعراض ــ الأمراض » تناسب النصـح والموعظة.. وله أبيات من قافية ــ التاء ــ يقول فيها :

يا مائسـا فوق الـثرى رفقا فسـوف تصير تحته

ان قلت : انى أعـرف المو لى القـدير فما عرفتـه

---

(١٩) الأصـوات المجهورة : « ب ــ ح ــ د ــ ذ ــ ر ــ ز ــ ض ــ ظ ــ ع ــ غ ــ ل ــ م ــ ن » .

راجع : الأصوات اللغوية ص ٢٢ ــ د ــ ابراهيم أنيس .

(٢٠) ديوان الوزير المصرى ــ طلائع بن رزيك ــ د ــ الحوفى ص٣٨

ان كنت تعبد للمخافة والرجاء فما عبدته(٢١)

وهي تمثل قمة الرعد والعبادة ، واستطاع الشاعر فيها أن يوظف الموروث العقدى فى خدمة فكرة الموعظة وتوصيلها الى المتلقى ..

وكأني بالشاعر ــ هنا ــ ينصحك بقوله : « ولا تمش فى الأرض مرحا ، انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا »(٢٢) .

ويرشدنا الى المأثور فى العبادة عن « رابعة العدوية » حينما قالت : « اللهم ان كنت أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى منها . وان كنت أعبدك خوفا من نارك فأدخلنى فيها : ولكنى أعبدك لذاتك ، فلا تحرمنى من النظر لوجهك الكريم »(٢٣) .

وجاءت موسيقى الأبيات هادئة هامسة ، توحى بها اختياره لمفردات الموعظة .. مثل « مائسا ــ رفقا ــ الرجاء .. » .

وقد استطاع الشاعر ــ على ضوء ما سبق ــ أن ينقل لنا بتفوق واقتدار تجربة الموت من حدث فردى واحساس ذاتى ، الى تجربة انسانية عامة ، فذكر الناس بالموت وخوفهم من الآخرة ، وأرشدهم الى الجنة فى حكم وتوجيهات سديدة ، مستقاة من تعاليم الدين والقرآن الكريم ــ كما يقول :

---

(٢١) ديوان الشاعر للأمينى ص ٦٦ .

(٢٢) آية ١٨ من سورة لقمان .

(٢٣) تاريخ التصوف فى الاسلام ص ٥٠ : ٥٢ بتصرف ــ د ــ قاسم غنيمى ــ دار النهضة ١٩٧٠م .

هـل أتى فهم تنزل فيهـا فضلهم محكما وفى السورات
يطعمون الطعام خوفا فقيرا ويتيما وعانيا فى العنـات
انما نطعـم الطعام لوجه الله لا الجزاء فى العاجلات
فجزاهم بصبرهم جنة الخلد بها من كواعب خيرات(٢٤)

فقد أخذ معنى أبياته السـابقة من قوله تعـالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا انما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا(٢٥) وأحب الشاعر حينما يرسم لنا طريق الجنة معبدا بالجود والعطاء ، فانما يعبر عن منهجه فى الحياة ، ومسلكه مع معاصريه • ويؤيد هذا ما جاء على لسان « عمارة اليمني » متحدثا عن « طلائع » « •• وكان شاعرا يحب الأدب وأهله ويكرم جليسه ويبسط أنيسه ، وكان كرمه أقرب الى الجزيل من الهزيل •• »(٢٦) •

ويؤكد حرصه على منهج السخاء ، ترديد هذا المعنى فى أشعاره، فهو يقول فى مقطوعة أخرى :

هو الزاهـد الموفى على كل زاهـد
فمـا قطـع الأيام بالشـهوات
تقـرب للرحمـن اذ كان راكعـا
بخـاتمه فى جملة القـربات

---

(٢٤) ديوان الشـاعر للأمينى ص ٦٩ •
(٢٥) الآيات من ٧ الى ١٢ من سورة الانسان •
(٢٦) ديوان الشاعر للأمينى ـ القسـم الأول ـ ترجمه طـلائع ص ٣٣ : ٣٤ بتصرف •

باثياره بالقوت يطوى على الطوى :
اذا أمه المســـكين فى الازمات(٢٧)

ومعالجة المعنى الواحد بأكثر من صورة تعبيرية ، يدل على كثرة مخزونه من مفردات اللغة وتمكنه منها ..

والمقطوعات الشعرية المتعددة ستوحى بأن الشاعر كانت تفد الى نفسه خطرات روحية عندما تتشبع من الملك ، وتحن الى الصفاء ..

ونرى الشاعر فى موقف آخر يجهد نفسه كثيرا فى الاقتباس من القرآن الكريم حتى أنه اقتبس آيات كاملة ، بل سورة بتمامها ، كما حدث هذا فى سورة « هل أتى على الانسان » حينما ضمنها لعدة قصائد فى ديوانه(٢٨) .. منها :

(ان الأبرار يشربون بكـأس كان) حقا (مزاجها كافورا)
ولهم أنشـأ المهيمن (عينـا فجـروها عبـاده تفجـيرا)
وهداهم وقال : (يوفون بالنذ ر) فمن مثلهم يوفى النذورا
(ويخافون) بعـد ذلك (يوما) هائلا (كان شره مسـتطيرا)
(يطعمـون الطعـام) ذا اليتم والمسكين فحب ربهم والأسيرا
انما نطعم الطعـام لوجه الله لا نبتغى لديكم شـكورا
غير (انا نخاف من ربنا يوما عبوسا) عصبصبا تمطريرا(٢٩)

---

(٢٧) ديوان الشاعر ص ٦٩ الأمينى .
(٢٨) راجع الشاعر للأمينى ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .
(٢٩) ديوان الشاعر للأمينى ص ٧٨ .

والأبيات من قصيدة طويلة ، ضمنها الشاعر لآيات كاملة من سورة الانسان ، وهو بهذا يعلن عن روافد موعظته ، وسعة ثقافته الدينية ، وقدرته الفنية على تدبيج شعره بالقرآن الكريم .

وهذا المنهج الذى عمد اليه الشاعر ، دعم به نظرته الفنية واستقائها من القرآن الكريم ولا شك أنه يؤثر فى المتلقين ، محبب الى النفس — خاصة — فى موطن الموعظة والنصيحة الا أنه أسرف اسرافا كبيرا فى الاقتباس من القرآن الكريم ، وبالغ مبالغة غير مقبولة فى تضمين شعره الوعظى لكثير من معانى القرآن ، حتى أصبحت هذه الطريقة لا تخدم الأداء الفنى لعظاته ، وتقلل من قيمة عمله الفنى ..

والأجدر فى هذا المقام أن يأخذ الشاعر من القرآن الكريم بقدر ما يخدم عمله الفنى ، ويحقق الثمرة المرجوة من عظاته دون مواربة أو غموض..وهو فى قافية — الثاء — من ديوانه يتحدث واعظا ناصحا بعدم الركون الى الدنيا الفانية ، والاغترار بها فى حال من الأحوال :

أيها المغرور ، لا تغتر ... فمرعاك خبيث
سائق الموت وان حا ... ل بنا العمر الحثيث
ان من جادت على الخـ ... ـلق بجدواه ليموث
وأولو المجد القديم ... العهد منهم والحديث
أصبح اليوم حديثا ... وغدا نحن حديث (٣٠)

والنصيحة — هنا — مرسلة ، وعباراتها مسطحة مكررة لا ترتفع بالأداء الفنى لموعظته ، ونلاحظ ذلك فى كلمات : « المغرور ، لا تغتر

---

(٣٠) ديوان الشاعر للأمينى ص ٦٩ .

وأولوا المجد القديم .. أصبح اليوم حديثا .. » فهى لا تغرى بالتنبه لمضمونها ، وما تحمله من قضـــايا يجب الأخذ بمعالجتها والاســـتفادة منهـــا ..

وأسلوب الموعظة هنا خال من وسائل النهى باستثناء البيت الأول ــ أيهـــا المغـــرور ، لا تغتر .. ــ وعلى الرغم من التنويع بين الخبر والانشاء الذى يطرد الســـآمة والاعراض عن ســـامعيه ، فان التأثير فيهم ضعيف ، والموســـيقى فى الأبيات قاتمة لا تغـــرى الاســـماع ، ولا تأخذ بالألباب ولعل مرجع ذلك الى السطحية فى الكلمـــات وكأن الشاعر يحدث سامعيه عن شىء مألوف يتسلى معهم به ، ويريد منهم أن يبحثوا عن النصيحة الخافتة الضـــائعة ، بين ثنايا الأبيات والمنبعثة خلف ظلال الألفاظ التى شابتها السطحية وصاحبها الوهن(٣١) .

واذا كان الشاعر لم يوفق ــ فى مقطوعته الســـابقة ــ فى بلوغ درجة عاليـــة فى الأداء الفنى ، فاننـــا نراه فى موقف آخر يعرض لنا صورة فنية بديعة ، يصـــل بها الى درجة رفيعـــة فى الأداء الفنى .. يقـــول :

احذر غوائل دهرك أيها الســـاهى ... وجرد العزم فعل الآمر الناهى
لا يعجنـــك دينـــاران رونقهـــا ... فلعن قريب يزول الرونق الزاهى
ولا تكن الخطى من تاه متبعـــا ... ان الزمان لـــيردى كل تيـــاه
ولا تقضى زمانا باصطحاب ذوى (م) الخلق الفظيع وجانب كل جباه(٣٢)

---

(٣١) راجع : الصالح طلائع بن رزيك شاعرا ــ عبد الجواد أحمد محمد ص ٣٠٢ : ٣٠٣ بتصرف .

(٣٢) ديوان الشاعر للأمينى ص ١٦٨ وفى الأبيـــات : الغـــائلة : المهلكة . الشر . الجهل . الفساد . والجباة : الضعيف العقل والخلق

وأسرار تفوق هذا النص كثيرة ، نستطيع أن نذكر بعضـــها فيما يخدم الأداء الفنى لموعظة الشاعر •

فكرة الموعظة : تحذير من غرور الدنيا ومهلكات الدهر ، ونهى عن مصاحبة صاحب الخلق السيىء •

استعان الشاعر بمفردات وعظية تخدم طرح فكرته وتوصيلها الى المتلقى منهـــا : « أحـــذر — غوائل — الساهى — الناهى — وان — يزول •• الخ » •

فكل كلمة فى النص تحذر الســـامع ، وتنذره من الوقوع فى شرك الدنيا ، وتنبه المتلقى لكى يبتعد عن أصحاب الأخلاق السيئة ، وكلمة « الفظيع » تشديد فى التنفير من مصاحبة صاحب الخلق الذميم ، وان كانت غير شاعرية ، لأنها يأباها السمع • وأسلوبها قوى مؤثر ، بدأه بالتحذير من خدع الحياة •• « أحذر غوائل دهرك •• » وهو فى ذلك يدعو الى بعث الهمم وشد العزائم واليقظة التامة لمـــا يجرى فى الحياة الدنيا ، وقد استعان الشاعر فى توجيه نصـــائحه بالأمر والنهى اللذين لهما تأثير قوى على السامع أو القارىء ، اذ يأخذ نفسه بالاقلاع عن المعاصى أو الندم على التقصير ، حينما يسمع هذا التحذير أو النهى •

وعاطفة الشاعر قوية معبرة عن اندماجه مع المنصوح باحاسيسه ومشاعره ، كما توحى الأبيات ، أنه يريد أن يأخذ بيد الناس جميعا الى بر السلامة والأمان •

والموسيقى ذات جرس مستمر تشير اليهـــا الـــكلمات المختارة للتحذير من مثل : « غوائل — أيها الساهى — وجرد العزم — يزول — الناهى الفظيع •• الخ » وبين « الساهى والنـــاهى » تصريع ، حيث جاء به لتكرار الصوت وبسطه فى أذن المتلقى ، فيتنبه الغافل للموعظة •

وتبدو آثار الموسيقى واضحة جلية ، ممثلة فى تلك القفية التى جاءت من « الهاء » وجاء قبلها مد ، و فى بحر « البسيط » الذى اتخذ منه وزن قصيدته ، كما تتمثل فى تلك الحلية اللفظية الواضحة ، وفى اختيار الكلمات الملائمة لمعانيها ، المتناسق بعضها مع بعض .. فحققت جانبا كبيرا من جوانب الموسيقى الداخلية والخارجية ..

ويقول وقد أشاد يوما فى بعض من مجالس أنسه وسمره ونظم الشعر وقريضه يذكر الدار الموسومة — بالوزارة — ومن قطنها قبله من الخلفاء والوزراء ، ومن حضرها من الأمراء والعلماء ، وآخيرا تصرف الأحوال بهم وانقراضهم ، وما فى ذلك للعاقل اللبيب من العبرة والموعظة والتفكر ..

يا قلب كم هذا الغرور خدع المنى كذب وزور
أو ما ترى الآمال يفضح طولها العمر القصير
وبمثل ما صرنا اليه الآن يعتبر البصير
لو دام ملك لم يكن بعد الملوك لنا يصير (٣٣)

انها صورة القلب الوجل ، الذى يذكر الله ولا ينساه فى السراء والضراء ، والذى يعيش حياته على الأرض فى حذر من الآخرة ، وفى تطلع الى رحمة ربه وفضله ، بدأ أبياته بأسلوب النداء ، حيث يوجه الشاعر اللوم لقلبه لتعلقه بالدنيا وينصحه بالبعد عن الآمال الطوال ، ويوحى قوله : « كم هذا الغرور .. » بالندم والحسرة على ما فات من تربع الدنيا على قلبه وتمكنها من حياته طويلا لذا فهو يحاول أن يتخلص منها بالزهد فيها والأعراض عن آمالها وزخرفها الزائل وتذكير

---

(٣٣) ديوان الشاعر للأمينى ص ٧٦ : ٧٧ .

الشاعر من قاموسه الوعظى ما يخدم فكرة تحقير الدنيا والاستهانة بكرسى الوزارة .. من مثل : « الغرور — خدع — كذب — وزور — القصير » حيث كل كلمة تهون من شأن الدنيا وتحقرها فى نفسه ، ومن ثم فان على العاقل أن يأخذ بأسباب النجاة منهـا ، وبين « الغرور » « وزور » تصريع ، جاء به ليكشف عن تفاهة الدنيا وزيفها . وبمطالعتنا لديوان شعره يتبين لنا أنه لم يكن متصنعا فى زهده ، لكى يتقرب الى العامة بموعظة أو هى سياسـة زكيـة منه ، لكى يمدح بالزهـد عند الرعيـة(٣٤) ...

لكن من الراجح أن الشاعر « طلائع » نهج هذا المنهج فى شعره بدافع عقيدته وايمانه ، وخبرته الطويلة فى الحيـاة ، فهو يريد حقـا التقرب الى الله والبعد عن الدنيا وزخرفها الزائل .

ومما يؤيد هذه النظرة : أن المنصب فرض عليه فرضـا ، واضطر لقبوله لظروف سياسية وأمنيـة ، حيث مصر فى عهـده كانت تموج بالفتن والقلاقل والصراع على المناصب ، فاختاره الوجهـاء والأمراء لحسم الخلاف وتوحيد الصف(٣٥) ..

ولا يقدح فى صدق تجربته فى قصيدته الوعظية والزهرية ، تمسكه بكرسى الوزارة ، اذ أن الشاعر من داخله يشعر بفداحة هذا الكرسى ، وما يعطيه من هيمنته وسـيطرة ، ولما لم يتخلص منه فى الواقـع ،

---

(٣٤) يراجع هذا الرأى للباحث / عبد الجواد أحمد محمد — فى طلائع بن رزيك شاعرا » ص ١٥٤ بتصرف .

(٣٥) فى أدب مصر الفاطمية — محمد كامل حسين ص ١٢٣ : ١٢٧ بتصـرف .

بل تشبع بأبهة المنصب ، دفعه ذلك الى زهد داخلى ، عبرت عنه أشعاره وصورته مواعظه ونصائحه ..

وصورة الدنيا بأنها خدع وأمل منقطع توحى بأنها هزيلة بعيدة وتهون من شأنها وترفع النفوس عنها وتعلقها بالآخرة وقيمها :

يا نفس دنيـــاك هذه خدع ... والعيش ان دام فهو منقطع
وكل من نفسه تحدثه الخلو ... د فيهـــا قد غره الطمـــع
ياصاح فأيس من الدوام على ... الأيام ان الدوام ممتنع(٣٦)

وصورة النفس المخدوعة بالآمال وفســـحة الآجال مكررة كثيرا فى شـــعره :

يا نفس كم تخدعين بالآمل ... وكم تحبين فســـحة الأجل
وكم تجـــدين فى تطلبك الـ ... علم ولا تجهـــدين بالعمل(٣٧)

و « طـــلائع » يبين أثر الذنب فى القلب ، حيث يجعـــله عليلا ، لا يقوى على فعل الخير ، والبرء من علته يكون بالتوبة والأوبة الى الله ، محذرا من ضـــياع العمر سدى ، آمرا باغتنام الفرصـــة بالعمل الصالح . فيقول :

يا مريض القلب بالذنب ... متى بالعفـــو تبـــرا
كلمـــا جـــددت يوما ... توبة ضـــيعت أخـــرى

---

(٣٦) ديوان الشاعر للأمينى ص ٩٠ .
(٣٧) المرجع السابق نفسه ص ١٢٢ .
(٣٨) المرجع السابق ص ١٨٠ .

تشتهى الأجر ولا تفعل ما يكسب أجرا
أترى بعد ذهاب العمـ ـر تستأنف عمرا (٣٨)

ثم يعاود التحذير من الذنوب والمعاصى ... فيقول :

يا راكبا ظهر المعاصى أو ما تخاف من القصاص
أو ما ترى أسباب عمرك فى انتقاض وانتقاص(٣٩)

هذه المقطعات الشعرية الصغيرة ، انما هى نفثة تفد الى الشاعر بين الحين والآخر فى لحظات صفاء ، وذلك حينما يخلو بنفسه ويبعده عن الجاه والسلطان يدور الحوار بين الشاعر وعقله الباطنى ، موبخا نفسه على الركون الى الدنيا الفانية أو ارتكابه المعاصى والذنوب .

لذا يغلب على هذه الأشعار اسلوب النجوى .. وهو ما نحسه فى قوله : « يا نفس دنياك هذه خدع » مكرورة معادة فى أكثر من موطن فى صوت خافت لأنه يحاسب نفسه ويعنفها ، وكأنه لا يريد أن يفضحها .

ونداء النفس كنداء القلب والعين ، ظاهرة أسلوبية فى الشعر العربى .

ـ التجريد ـ :

وهو لون من الخيال ، تصير به أبعاض الانسان كأنها أناس ، لها تميزها المستقل .

ويلفت النظر فى المقطعات الصغيرة ، كلماتها السهلة الواضحة : « خدع الخلود ـ الطمع ـ الدوام ـ فسحة ـ الآجال ـ الأجر ـ المعاصى ... » .

---

(٣٩) المرجع السابق نفسه ص ٨٢ .

وهى بذلك تلائم اسلوب الموعظة ، حيث يفهمها الخاص والعام على السواء وظهرت الموسيقى قوية واضحة فى ملائمة الكلمات للمعانى ، والتزام الشاعر بمحسنات لفظية تعبر عن شعوره العميق بموعظته .. ومن هذه المحسنات « خدع ، منقطع : الأمل ، الأجل : المعاصى ، القصاص » تصريع يخدم فكرة الموعظة وتوصيلها قوية فى نفوس المتلقين .

وبين « انتقاض وانتقاص » جناس ناقص — لكى يشعرنا بضعفه وتهالكه .

ومازال الشاعر يعطينا عظاته من خلال مقطعات صغيرة خفيفة لكنها تحمل مقومات العمل الفنى وأدواته .. ها هو ذا يقول :

أيا دهر ، أين الملوك الذين كانوا فأضحوا كأن لم يكونوا

وكانت قصورهم لا ترام فتلك قبورهم لا تبين(٤٠)

فأشد ما يلفت نظره ويثير فى عقله التفكير والاعتبار شيئان : موت الملوك ، وزوال القصور .. هذا هو صنيع الدهر ، والشاعر — هنا — ينبىء عن خوفه ووجله وانتظاره صنيع الدهر ، فهو أحد الوزراء العظام الذين يقطنون القصور المنيقة .

وكلمات الموعظة مختارة « أيا دهر — أين الملوك — قبورهم لا تبين » لتوصيل تجربته الى الملتقى فيأخذ منها العبرة والعظة .

---

(٤٠) ديوان الشاعر للأمينى ص ١٦٢ .

وينوع الشاعر اسلوبه الوعظى بين الانشاء والخبر : « أيادهر ، أين الملوك ؟ ! وكانت قصورهم .. فتلك قبورهم » بقصد التأثير والافادة من الموازنة .

وأتى فى البيتين بأدوات الانشاء المعينة على الأداء الوعظى من من مثل : « أيا — أين — لا » .

واستعان الشاعر بألوان من البديع لتوصيل الموعظة الى المتلقى قوية مؤثرة .. من مثل : « كانوا ، ولهم يكونوا » طباق، أو التصريع فى « كانوا » فى نهاية الشطر الأول والثانى من البيت الأول .

وقوله : قصور لا ترام .. وقبورهم لا تبين » مقابلة العظمة الشموخ فى القصور ... بالهوان والمسكنة فى القبور .

وقال « طلائع » فى النصيحة والاعتماد على الله فى كل نازلة ومهمة :

خفن بحار الموت فى النقلة من دار الهوان
واحمل النفس من الصبر على حد السنان
واجتهد ألا يراك الناس مبسوط البنان
فعسى الرحمان يغنى عن فلان وفلان(٤١)

الموعظة فى الأبيات السابقة مرسلة ، وجاءت بأسلوب الأمر لأنه جهاد بالنفس ومتع الحياة متوكلا على الله ، والفكرة لا عمق فيها ، فهى لا تلفت نظر المتلقى ، ولا تدفعه الى تأمل مصحوب بعمل ، فكانت هذه

---

(٤١) المرجع السابق نفسه ص ١٦٢ .

الدعوة ضعيفة التأثير فى النفس غير مؤدية الى تغيير فى السلوك ، وانتفاع فى الحياة .

وفى قوله : « خفن بحار الموت » يوحى بتخوفه من الموت وسكراته حيث لا يجب لقاء الله الا من قدم صالحا ، ولذا فهو يحمل على نفسه ويلزمها الصبر قسرا .

وقوله : « دار الهوان » يوحى بتفاهة الدنيا وحقارتها ويؤخذ على الشاعر الضعف فى أسلوبه السطحية : « احمل النفس ـ اجتهدا الا يراك .. » خاصة قوله : « فعسى الرحمن يغنى عن فلان وفلان » فلفظة « فلان وفلان » (٤٢) على الرغم من فصاحتها ، فان كثرة دورانها على لسان العامة ، جعلها مبتذلة لا سيما فى الفن الشعرى .

ويتابع الشاعر لقطاته السريعة الخفيفة التى لا تحمل فكرة عميقة فيقول :

يانائما فى هذه الدنيا أما آن انتباهك
المال لا يغنيك فى الأخرى ولا ينجيك جاهك

الموعظة مرسلة عامة لكل الناس ، ، كلماتها قليلة ، تشير الى أن

---

(٤٢) فى القاموس المحيط : « فلان وفلانة مضمومتين : كناية عن أسمائنا ، وبأل عن غيرنا ، وقد يقال للواحد يا فل وللاثنين يا فلان وللجمع يا فلون وفى المؤنث يا فلة ويا فلتان ويا فلات ، ومنع سيبويه أن يقال فل ويراد فلان الا فى الشعر ... راجع : القاموس ـ الجزء الثالث والرابع ص ٢٥٨ .

(٤٣) ديوان الشاعر للأمينى ص ١٧٠ .

الشاعر مثقل بأعباء الملك والوزارة الى أن يخلو بنفسه محاسبا لهـا ، محذرا من الركون للدنيا ، فليقى هذه الخطرات المعبرة عما تعتمل به نفســه .

ونلاحظ فى هذا التشكيل المكون من مقطعات صغيرة لا تتجـاوز أبياتها أربعة ــ على الأكثر ــ نلاحظ الكلمة السهلة ، والعبارة الواضحة ، والفكرة لا عمق فيها وهو يريد بها التنفيس عما فى صدره ، فالموعظـة تلقى سريعة لا تشتمل على مقومات العمل الفنى الجيـد .

والتشكيل الأخير فى شعر الشاعر هو أن يتخذ الفنون الأخـرى معرضا للعظة والعبرة يذكر بيت أو بيتين فى قصيدة أو تؤخذ الموعظة بطريق غير مباشر من القصيدة ــ فتراه مثلا يرثى أهل البيت ويأحـذ على المسلمين عدم نصرتهم ويدعوهم ــ بطريق غير مباشر ــ الى اعتناق مذهبه ، فان فيه السلامة والأمن من الزلل .

يقول :

وقـد علمنـا مالو به عملت ... نفوســنا أمنت من الزلـل
وكان فيـه نجـاة أنفسـنا ... لولا اعتبـاء الفتور والكسـل
فليس فى مـلة من الملل مـا ... صـار فى المسـلمين من ملل
ولا جرى فى شريعة سـلفت ... على اختلاف الأديان والنحـل
ما جرى من فعـال أمتنـا ... بظلمهم آل خـاتم الرسـل

* * *

وظن أن الذى تفـرر فى ... ــ الغدير ــ لم ينتقض ولم يحل(٤٤).

(٤٤) ديوان الشاعر ــ الأمينى ص ١٢٢ ــ ١٢٣ ــ ١٢٤ .

قصيدة طويلة فى رثاء أهل البيت ، يصور فيها المحن والمصائب التى نزلت بهم ، وهو حينما يفعل ذلك لا يدعو الناس للعويل والبكاء بقدر ما يدعوهم الى النصرة والتأييد ..

وكلمة « لم يحل » فى البيت الأخير من النص ، جاءت من أجل الموسيقى الخارجية ، حيث اكتمل المعنى بقوله : « لم ينتقض » وقد جاء ببعض الصور الجزئية لابراز فكرة شحذ الهمم وشد العزائم كقوله :

فليس فى ملة من الملل ما صار فى المسلمين من ملل

فجاء بالتورية بين الملل والملل ليكشف ما أصاب الأمة من ضعف وتخاف ، وكذلك كلمات : « زلل ـ الفتور ـ الكسل ـ اختلاف ـ النحل .. » تشير الى حال الأمة واختلافها ، ودعوتهم المذهبة واستغل الشاعر عاطفته الدينية فى التأثير فى المسلمين ، كاشفا الصور الحزينة فى تاريخ الاسلام من قتل الحسين وظلم أهل البيت ، وجاءت الموسيقى حزينة باكية باعثة فى المتلقى ما يهدف اليه من الالتفاف حول أهل البيت ونصرتهم .

والشاعر « طلائع » قائد غيور على دينه ، وهب نفسه للدفاع عن الاسلام ومقدساته لذا خاض حربا مقدسة ضد الصليبيين ونظم القصائد الكثيرة لدعوة المسلمين لتوحيد وجمع الكلمة ..

وتجلى فى ديوانه فرائد عظيمة من شعر الجهاد أو بمعنى أو فى شعر التحميس للقتال » ومن خلاله يسدى نصائحه وعظاته المسلمين .

ها هو ذا يحذر المسلمين من الفرقة والشقاق فى قصيدة أرسلها الى « قلج أرسلان بن مسعود » صاحب الروم ، وكان وقع بينه وبين

« نور الدين محمود ابن زنكى » صاحب الشام وحشة أدت الى الحرب والتطاحن والتضاغن ، فعندما بلغ خبرها الى مصر كتب الأبيات هذه الى « قلج » ينهاه عن ذلك :

نقول ، ولكن أين من يتفهم
ويعلم وجه الرأى ، والرأى مبهم

وما كل قاس الأمور وساسها
يوفق للأمر الذى هو احزم

وما أحد فى الملك يبقى مخلدا
وما أحد مما قضى الله يسلم

أمن بعد ما ذاق العدى طعم حربكم
بفيهم ، وكانت وهى صاب وعلقم

رجعتم الى حكم التنافس بينكم
وفيكم من الشحناء نار تضرم

أما عندكم من يتقى الله وحده
أما فى رعاياكم من الناس مسلم

تعالوا ، لعل الله ينصر دينه
اذا ما نصرنا الدين نحن وانتم

وننهض نحو الكافرين بعزمة
بأمثالها تحوى البلاد وتقسم (٤٥)

---

(٤٥) ديوان الشاعر للأمينى ص ١٣٣ .

بدأها بأسلوب السخرية والتقريع .. « نقول ، ولكن أين من يتفهم .. »

« وما كل من قاس الأمور وساسها ... » .

وما كان له ذلك — خاصة — أنه يخاطب قائدين من قواد المسلمين، لولا أن الموقف يستدعى ذلك حيث حال المسلمين يرثى له والعدو يحتل بلادهم وهما فى شقاق وخلاف ....

وعلى الجملة تبدو فى الأبيات همة الشاعر نحو الوحدة العربية وجمع الكلمة جادة قوية ، فها هو ذا ينهى صديقيه عن الخلاف ويظهر حزنه وسخطه لدماء المؤمنين المسفوكة بيد اخوانهم ... ويدعوهما الى توجيه جهودهما ، وجهود جميع البلاد العربية الأخرى الى تحرير البلاد من الصليبيين ، وقد استغل — فى ذلك — عاطفتهم الدينية القوية كأحدى أدوات العمل الفنى ، فألهب فى نفوسهم الحماسة الدينية ..

وقد ساق الشاعر نصائحه فى صورة حقائق وثوابت يقررها ، فهو يفهمها جيدا ويريد من المتلقى أن يعيها مثله ..

وطبعت الموعظة بطابع السياسة والمنطق،مستقاة من خبرته بالحياة وثقافته الدينية ، يتجلى ذلك فى البيت الأول والثانى من النص . والبيت الثالث تظهر الموعظة جلية مستقاة من قوله تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد .. » (٤٦) .

وفى البيت قبل الأخير ، جاء متضمنا للآية القرآنية : « ياأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم » (٤٧) .

---

(٤٦) جزء من آية ٣٤ — سورة الأنبياء .

(٤٧) الآية رقم — ٧ — من سورة محمد .

وأخيرا : جاءت موسيقى الأبيات حزينة يملؤها الشجن والأسى على تفرق المسلمين وشقاقهم .. توحى بها الكلمات والجمل الآتيـــة : « من يتفهم ، والرأى مبهم ، الشحناء نار تضرم ، أما عندكم من يتقى الله وحـــده .. الخ » وكانت الموسيقى الخارجية متواءمة مع الموسيقى الداخلية ــ فالقصيدة من بحر الطويل، وهو يناسب هذا اللون من الشعر

وبهذا القدر نكون قد عرضنا تشكيلات متنوعة للأداء الفنى من خلال عظات الشاعر ونصائحه ؛ رأينا فيها كيف ارتقى الشاعر بعظاته الى قمة الأداء الفنى ... أو الى أى مدى وفق وأصـــاب ، أو قصر وجانبه الصواب ...

وقد توصل هذا البحث ــ القصير ــ الى نتائج عدة ، من أهمها :

١ ــ اتضحت الرؤية لدينا : أن شعر الموعظة عند «طلائع بن رزيك» له روافد كثيرة متنوعة أثبتها البحث ــ فيما سبق عرضه ــ أثناء الحديث عن بواعث شعر الموعظة عنده ... منها :

نشأته فى أسرة دينية ، محبة للعلم والثقافة ، دفعته على البحث والمطالعة فى مختلف العلوم والفنون الدينية والدنيوية ... ثم القيـــم الانسانية المتركزة فى نفسية الشاعر كانت باعثا قويا الى رقيه وتقدمه ، وهى بعينها التى حدت به الى الوقوف متأملا فى الحياة والموت، نراح يصوغ فلسفته فيهما فى أداء فنى متميز ...

لقد اتسع فن الزهد والموعظة فى عصره لظروف عديدة .. والتنافس العلمى الذى كان بين العلماء والذى يذكى روحـــه طائفة من الحكام ، كان فى مقدمتهم « طلائع » ، واغداق العطايا والهبـــات على الشعراء ، ووجود الكثرة الغالبة من الوعاظ والنساك ... كل ذلك دفع الشاعر الى الاتجاه نحو الأداء الوعظى فى شعره ..

٢ ــ بدا « طلائع » فى شعره الوعظى ، واعظا ماهرا ، وحكيما مجربا ، بل أعطانا صورة الناسك المتبتل ، العازف عن زخرف الدنيا ومتاعها الفانى ، ووضح أن شعره فى الاستهانة بالدنيا لم يكن من قبيل السخط والتبرم بها ، أو استكانة واستسلاما للقضاء والقدر ، بل كان قطعة من الحياة نقلها الينا الشاعر بأدائه الفنى وأحساسه الفردى فى تجربة انسانية عامة تهم كل الناس ، ومن ثم فهو يحرص على هدايتهم ونصحهم .

٣ ــ وفق الشاعر ــ الى حد كبير ــ فى عرض فكرته ، وجاءت سهلة ميسرة فى أغلب الأحايين ، لا يظهر عليها أثر التكلف أو الفلسفة الفكرية ، وهو بذلك يوافق طبيعته ويعايش عصره ويجارى منهج الموعظة ... وأضعف رؤيته الفنية حينا ، وذلك عندما يتكلف أو يخضع موعظته للعقل والمنطق ...

٤ ــ توصل البحث الى أن « طلائع » لم يكن متكلفا ــ الا ما ندر ــ فى شعره الزهدى والوعظى ، أو متظاهرا لكى يمدح به أو حنكة سياسية ... حيث ان المنصب فرض عليه لظروف سياسية وأمنية ..

بل كان صادقا فى تجربته الوعظية ، لا يقدح فى صدقها ، تمسكه بكرسى الوزارة ، اذ أن الشاعر من داخله يشعر بفداحة ثقل هذا المنصب وما يعطية من هيمنة وسيطرة ، لكنه حينما شعر أنه لا يمكنه التخلص منه .. دفعه ذلك الى زهد داخلى جاشت به نفسه فى شعر وعظى متفرد فى الأداء الفنى ، بين الاجادة والتقصير ..

٥ ــ شاع الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم فى شعره الوعظى وهو يكشف عن ارتباطه بكتاب الله وفهمه لآياته ، وقد وفق كثيرا فى الأداء الفنى ، وذلك عندما أخذ بقدر ما يخدم عماد الفنى ويوصله

تجربته الى المتلقى ، وأخفق حينـــا ، وذلك عنـــدما • أسرف وبالغ فى الاقتباس ، عامدا لجذب الأنتباه ، ومسايرا لشعراء عصره •

٦ ــ يلفت النظر فى شعره الوعظى ، كثرة البديع ، منـــه ما جاء عفوا وبدون قصد يخدم القصيدة ويرفع من قيمتها الفنية وبعضه عمد اليه الشاعر بقصد لفت الانظار لعمله وشد الانتباه اليه ، وهو بهـــذا الشكل يضعف من رؤيته وينزل بأدائه الفنى •

٧ ــ تبين أن الأداء الفنى لعظات الشاعر يتشكل فى صور ثلاث .

الأولى : أن تكون الموعظة غرضا أساسيا وقصيدة كاملة من بدايتها الى نهايتها وحينئذ يكون العمل الفنى مكتملا وأدواته كثيرة متنـــوعة ترفع من قيمته •••

الثانية : أن تكون الموعظة قطعة شعرية صغيرة مفردة ، يتنوع فيها الأداء الفنى بين الاجادة والتقصير ، وهى توحى بأن الشاعر كانت تفد الى نفسه خطرات روحية ، عنـــدما تتشـــبع من المال ، وتحن الى الصفاء ••

الثالثة : أن تأتى الموعظة فى شكل أبيات متفرقة فى ثنـــايا قصيدة لغرض من الأغراض خاصة ، الرثاء والحماسة والرســـائل الشعرية ، وقد تؤخذ الموعظة بطريق غير مباشر فى قصيدة من القصائد ، وهـــذا اللون تضعف فيه الصورة ويهبط الأداء الفنى ••

٨ ــ ضعف الأداء الفنى عند الشاعر كلما اتجه الى المباشرة فى توجيه عظاته ونصائحه ، طالبا من المتلقى أن يفعل كذا وكذا •• ولا شك أن المباشرة ليست فنا رفيعا •••

٩ ــ وفق الشاعر فى عظاته ، عندما جاءت الكلمة والعبارة مناسبة المعنى موصلة فكرة الموعظة ، وكانت الصورة والموسيقى معينتين على توصيل التجربة الى المتلقى ، وتجلت العاطفة قوية صادقة معبرة عن اندماجه مع المنصوح بأحاسيسه ومشاعره فى أغلب أعماله الفنية ..

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

اهم مراجع البحث

١ ــ تاريخ التصوف فى الاسلام ــ د٠ قاسم غنيمى ــ دار النهضة ١٩٧٠ م ٠

٢ ــ ديوان الوزير المصرى ، طلائع بن رزيك ــ د٠ أحمد أحمد بدوى مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٨ م ٠

٣ ــ ديوان طلائع بن رزيك ــ جمع وتبويب ــ محمد هادى الأمينى طبعة النجف الأشرف بالعراق ــ طبعة أولى ١٩٦٤ م ٠

٤ ــ الصالح طلائع بن رزيك ــ عبد الجواد محمد ــ ١٩٨٣ م ٠

٥ ــ فى أدب مصر الفاطمية ــ د٠ محمد كامل حسين ــ طبعة دار الفكر العربى (١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ م) آبادى ــ طبعة الحلبى ــ الطبعة الثانية ــ (١٣٧١ هـ ــ ١٩٥٢ م) ٠

٦ ــ من النصوص الأدبية فى العصر العباسى ــ شرح وتحليل ــ د٠ مصطفى محمود يونس طبعة ثانية سنة ١٩٨٢ م ٠

٧ ــ الواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ــ تقى الدين المقريزى ــ طبعة وادى النيل بالقاهرة ٠

٨ ــ النجوم الزاهرة ــ ابن تغرى بردى ــ طبعة دار الكتب المصرية ٠

٩ ــ النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ــ عمارة اليمنى طبعة ١٨٩٧ م ٠

الدكتور / فؤاد أحمد صبرة عبد الله
المدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية